عبد الإله حيدر شائع*

الخروج النهائي من النفق..

هروب قيادات التنظيم يحكي قصة «القاعدة» في اليمن

■ بمجرد خروجهم من النفق المظلم تحطمت طائرتان كانتا تقومان بعمليات استطلاع مكثفة قبالة السواحل اليمنية في خليج عدن تحسبا لانتقال النشطاء إلى خارج اليمن عن طريق البحر وتسللهم إلى إحدى المناطق التي لا تخضع لحكومة مركزية تديرها كالصومال التي تشكلت خلايا للقاعدة فيها مطلع التسعينيات وكان لها دور ـ اعترف به الأمريكيون ـ في إفشال عمليتهم (إعادة الأمل).

عملية الهروب الدقيقة التي نفذها شبان القاعدة في اليمن مطلع شهر شباط (فبراير) الماضي، لم تكن العملية الأولي، فقد نجح نشطاء من أعضاء تنظيم القاعدة في أفغانستان من الهروب من سجن أمريكي في قاعدة باغرام الأمريكية قرب كابول قبل عملية صنعاء بأشهر قليلة.

ووصفت مجلة «نيوزويك» الأمريكية الهروب الكبير لأعضاء من تنظيم القاعدة في اليمن بأنها عملية دقيقة ونفذها محترفون مستخدمين أدوات بدائية ومدة لا تقل عن شهرين من الحفر المتواصل لنفق بلغ طوله 45 مترا من مسافة تزيد قليلا عن الخمسة أمتار تحت الأرض.

من بين النشطاء الفارين المتهم بالتخطيط لضرب المدمرة الأمريكية كول في عدن في تشرين الاول (أكتوبر) 2000 جمال البدوي، الذي خطط لضرب المدمرة الأمريكية وعمره لم يصل منتصف العشرينيات وأودى بحياة أكثر من خمسين بحارا أمريكيا من جنود المارينز ما بين قتيل وجريح واخرج المدمرة الأمريكية من الخدمة نهائيا.

وجابر البناء المطلوب داخل أمريكا لأنه يحمل الجنسية الأمريكية ويتزعم خلية تم اعتقالها داخل أمريكا وفر هو إلى اليمن وتم اعتقاله فيها، وفواز الربيعي المتهم بتخطيط وضرب ناقلة النفط الفرنسية ليمبورج قبالة سواحل مدينة المكلا ـ حضرموت في تشرين الثاني (نوفمبر) 2002 ومحاولة اغتيال السفير الأمريكي السابق ادموند هول الذي صرح قبيل مغادرته لليمن وبعد اعتقال هؤلاء أن اليمن أصبحت خالية من الإرهاب وهي من أكثر الدول أمانا في المنطقة.

البداية الأولى لحفر النفق

نفق القاعدة في اليمن لم يبدأ مع مطلع العام 2006 بل يسبق ذلك التاريخ بربع قرن من الزمان حين قرر السوفييت غزو أفغانستان في العام 1979 فقرر بن لادن أن يدعم إخوانه الأفغان، وانطلق لاستطلاع تلك المنطقة والأوضاع فيها بعد الغزو، وكان قد سبقه إليها الدكتور عبد الله عزام الذي طردته الحكومة الأردنية من الجامعات هناك ومنعته من التدريس فيها بعد ان جمد الإخوان المسلمون في الأردن عضويته في التنظيم وقرروا فصله فيما بعد بسبب إنشائه معسكرا للتدريب على الحدود مع فلسطين موطنه الأول.

فوجد الدكتور عزام طريقه إلى الجامعات في المملكة السعودية وتعرف في تلك البلاد إلى الشاب الملياردير ابن الأسرة التي بنت الحرمين الشريفين وجددت بناء الأقصى في فلسطين، أسامة بن لادن وهو في العشرينيات من عمره يضخ إيمانا ويتقد حماسا، ووجد بن لادن في الدكتور عزام ابن الأرض المحتلة المطرود من بلاده مرتين، مهاجرا في سبيل الله، فاتخذ نفس الطريقة، فهاجر الشاب الثري إلى أفغانستان ورجع إلى اليمن ليحض فيها القبائل للدفع بأبنائهم لقتال الاحتلال الروسي هناك.

خيوط القاعدة كفكرة بدأ ينسجها بن لادن من موطن آبائه وأجداده اليمن التي تعرف في النبوءات أنها أرض المدد، ولأن مسقط رأس أبيه ـ حضرموت ـ كان يرزح تحت الحكم الماركسي الموالي للسوفييت الذين احتلوا أفغانستان، فإنه لجأ إلى القبائل شديدة البأس والمراس عالية الشكيمة في الصحراء الممتدة من مأرب إلى صعدة شمالا، ووجد أسامة بن لادن في البداوة الأصالة والنخوة العربية الرصيد الذي يجعله يفجر فيهم هذه الطاقات ويوجهها لقتال المحتلين الروس في أفغانستان.

وبالفعل تدافعت تلك القبائل تدفع بفلذات أكبادها إلى أرض المعركة لا ينقصهم التدريب ولا الشجاعة والبأس في القتال، فهم أبناء منطقة لا ينزل السلاح من عاتقهم إلا عند النوم.

وطبيعتهم الصحراوية ومنازلهم الطينية أكسبتهم الشدة وعدم التعلق بالدنيا، وبداوتهم غرست فيهم حب النصرة والمناصرة للأخ والقريب والغريب خصوصا أنهم يعتقدون أن ما يربطهم بأفغانستان رباط الإخوة الإسلامية وهم يعتبرونه في تكوينهم الثقافي وموروثهم اعظم من رباط العشيرة.

وجد بن لادن صدى كبيرا لندائه، ورغبة أمريكية في تدفق أبناء المسلمين لنصرة إخوانهم ضد المحتل الروسي كي تكبده الخسائر لتتمكن من التفرد بحكم العالم بعد ذلك، ولكن بن لادن لم يكن يفرق بين محتل روسي أو أمريكي وكانت معسكراته التي افتتحها في أفغانستان لاستقبال شبان من اليمن والخليج يتم فيها هكذا تعبئة وتربية.

وحين بدأ شباب من اليمن يتدفقون إلى أفغانستان كان من بينهم أبو الحسن المحضار وأبو علي الحارثي من قبائل يمنية كانت ترزح تحت الحكم الإشتراكي لجنوب اليمن فكان التدريب والمتابعة في أفغانستان وفي جبال اليمن لقطع ذيول السوفييت في عدن، ولم يتحقق لهؤلاء الشباب إلا في حرب صيف 94 التي تمكنت فيها القاعدة من المشاركة رسميا في حرب ضد عدو تعتبر القاعده ضرورة إنهائه واجبا دينيا.

وبينما كان شباب للقاعدة من الخليج على رأسهم عبد العزيز المقرن القائد الميداني للقاعدة في السعودية والذي قتلته قوات الأمن في حزيران (يونيو) 2004 ينازل القوات الأمريكية في الصومال عام 1992، كان في نفس الوقت شبان يمنيون يخوضون حرب عصابات مع الحزب الإشتراكي اليمني يتزعمهم أبو طارق الفضلي وجمال النهدي، وهؤلاء تم انقطاع صلتهم بالقاعدة وبأسامة بن لادن منذ انتهاء الحرب في منتصف 94 وتمت تسوية أوضاعهم المادية والوظيفية مع الدولة.

وبعد أن ضربت القاعدة في تسع دقائق سفارتين للولايات المتحدة الأمريكية في نيروبي ودار السلام في العام 1998 كان أبو الحسن المحضار يصعد إلى جبل المراقشة في أبين شمال مدينة عدن هو ومجموعة من رفاقة استعدادا لشن عمليات ضد أهداف أمريكية وغربية في اليمن.

تمت عملية واحدة للمحضار الذي قالت السلطات اليمنية انها تتبعت اتصالا له بأفغانستان فترة احتجازه للرهائن البريطانيين في كانون الاول (ديسمبر) 1998، ثم باغتت قوات الأمن اليمنية المحضار في معقله وتترس هو بالرهائن فقتل منهم أربعة واعتقل المحضار ورفاقه.

تم إعدام أبو الحسن المحضار بعد مرافعات ترافع فيها المحضار بنفسه أمام القاضي في المحكمة متمسكا ببيعته لأسامة بن لادن وشرعية عمله وأنه نوع من جهاد الكفار الذين يدخلون إلى بلاد المسلمين لأنهم ينتمون إلى بلاد محاربة للمسلمين وتساعد الإحتلال اليهودي لفلسطين منذ عشرات السنين.

وبعد إعدام ابو الحسن المحضار كان التحضير جاريا لعملية أخرى، ولم تكن الدولة اليمنية بصورة رسمية على علم بماذا يدبر أسامة بن لادن على شواطىء عدن، فتحركت خلايا القاعدة التي نشأت بعد حرب 94 في اليمن مجددة نفسها بعد سقوط قيادات سابقة في التنظيم بسرية تامة.

هذه المرة جاءت الضربة من جيل ليست له علاقة عضوية بمن سبقه ممن خاضوا حربا ضد الحزب الإشتراكي جنوب اليمن في عدن، كانوا شبانا تلقوا تدريبات بعد خروج المحتل الروسي من أفغانستان، وكانت هجرتهم إلى معسكرات القاعدة في أفغانستان بعد منتصف التسعينيات، حيث كانت القاعدة تعد العدة لمنازلة الولايات المتحدة الأمريكية في كل مكان، وهذا ما يجعلنا نفهم سبب بروز تنظيم القاعدة كلاعب رئيسي على الساحة العراقية لأنها كانت تعد الرجال للمنازلة منذ زمن بعيد.

نفق المخابرات الأمريكية

وقبل أن ينجح نشطاء من القاعدة في حفر نفق الأمن السياسي في صنعاء كانت المخابرات الأمريكية قبلهم بسنوات قد حفرت نفقا إلى مقرها في واشنطن عبر تأسيسها لشعبة الإرهاب في صنعاء. ولأول مرة يتم إنشاء غرفة خاصة بالمخابرات الأمريكية في مقر الأمن السياسي بصنعاء عقب عمليات جبل المراقشة في كانون الاول (ديسمبر) 1998، وتقاطرت جموع رجال التحقيق الأمريكان والبريطانيين للتحقيق في الحادث لأن القتلى الأربعة كانوا بريطانيين. انتقل التعاون اليمني ـ الأمريكي في حرب الأرهاب ـ ولأول مرة ـ إلى مستوى عال حيث تم توقيع اتفاقيات أمنية بين البلدين تضمن حضور المحققين الأمريكيين جلسات الإستجواب والإطلاع على محاضر التحقيق.

ولأول مرة يتم فيها ابتعاث عدد من ضباط الأمن اليمنيين للتدرب في أمريكا على نقل المعلومات وربط الشعبة الخاصة بالـ CIAفي الأمن السياسي اليمني بمقر المخابرات الأمريكية في واشنطن.

وبدأت عمليا شعبة الإرهاب في الأمن السياسي بصنعاء عملها منذ ذلك التاريخ وتلك الحادثة المعروفة بعملية جبل المراقشة، وكان يتوافد خبراء أمريكيون على صنعاء لمتابعة المعلومات وطريقة نقلها، وتم في سنوات قليلة إنجاز قاعدة بيانات تتضمن أهم الشخصيات الإجتماعية والعسكرية والسياسية والإسلامية التي لها علاقة من قريب أو بعيد بشبكة القاعدة أو بأفكارها القائمة على التوحيد والجهاد.

وتمكنت شعبة الإرهاب من الحصول على الأرصدة من البنوك للجمعيات والمؤسسات العاملة في اليمن المحلية أو التي هي عبارة عن فروع لمؤسسات خيرية في الخليج.

وشكلت شعبة الإرهاب في الأمن السياسي بصنعاء نواة وقاعدة العمل الذي استندت عليه أمريكا في عملها الاستخباراتي والأمني في اليمن، وكان من ثمرته اعتقال الشيخ المؤيد ومحاصرة الشيخ الزنداني ومعرفة الساحة السياسية والتفريق بين نوعين من الإسلاميين الجهاديين والمعتدلين الليبراليين، فقدمت دعما لوجستيا لليبراليين كي تضرب بهم فكريا وأيديولوجيا الإسلاميين الجهاديين وتحاصرهم ببث أفكار وفتاوى لها طابع شرعي يؤيد المواقف والحملات الأمريكية، ثم تستخدمهم الآن لتقويض النظام اليمني بتهمة الفساد وهم جزء منه بعد أن فرغت أمريكا من استخدامها للرئيس علي عبد الله صالح في التخلص من أتباع أسامة بن لادن واختراق مؤسسات المجتمع اليمني بالتحالف الوثيق معها في حرب الإرهاب التي تمثلت في قتل واعتقال وعمليات أمنية استخباراتية واسعة واستحداث مؤسسات أمنية كفرع الـ CIAفي صنعاء ومكتب التحقيقات الفيدرالي FBI. وتمكنت المخابرات الأمريكية من اختراق المؤسسات الأمنية والسياسية بما فيها الأحزاب وبدأت تصنع لها بدائل لإدارة الصراع في اليمن، ويعتبر الإسلاميون الذين هم ـ التجمع اليمني للإصلاح ـ بتحالفهم مع الحزب الإشتراكي الورقة الرابحة التي تراهن عليها أمريكا في خلخلة البنية الثقافية والسياسية في الأوساط اليمنية لصالح البرنامج الأمريكي في المنطقة القائم على نشر الديمقراطية الغربية وإقامة التحالفات العسكرية والأمنية بضمان بقاء اليمن قاعدة خلفية آمنة لامريكا في حرب الإرهاب بمنع التجنيد منها وفيها لصالح القاعدة.

ولكن زعيم تنظيم القاعدة أسامة بن لادن كان يحضر في هذه الأثناء لضربة كبرى في اليمن، وفاجأ العالم بضرب المدمرة الأمريكية على شواطىء اليمن، معلنا بأنه قادر على منازلة أمريكا، وان معركته معها في كل مكان في العالم في وقت كانت فيه القيادة الأمريكية منشغلة جدا بالانتخابات الرئاسية التي فاز فيها الرئيس بوش.

وتسببت هذه العملية بمشادات رسمية بن الدولتين حول حجم الوجود الأمني والعسكري ومدى التدخل الأمريكي في الشؤون الداخلية، سرعان ما تبددت بعد الهجوم الأكبر في تاريخ الصراع الحديث الذي نفذته القاعدة في الحادي عشر من ايلول (سبتمبر)، فاكتمل التعاون الرسمي بتدريب أمريكا لجيش نجل الرئيس اليمني أحمد علي عبد الله صالح، واستحداث الأمن القومي وتغييرات في البنية الاجتماعية والسياسية والثقافية باختراق أهم المحافظات اليمنية التي كانت تعتبرها أمريكا مغلقة على فكر بن لادن وتسهل حركة أتباعة بإيوائهم واتخاذها منطلقات ومناطق تزود بالسلاح.

دمى تتصنع دور القاعدة

وأخذت المعركة بين القاعدة والسلطة في اليمن بعد عملية المراقشة بعدا آخر، وانتقلت من مرحلة غض الطرف إلى مرحلة المطاردة والقتل والإعتقال، كما تم إعدام أبو الحسن المحضار والحكم بالسجن لباقي أعضاء المجموعة.

وبدأت المطاردة العلنية والواسعة من السلطات لأتباع القاعدة بعد عملية المراقشة، وتمكنت المخابرات الأمريكية بالتعاون الأمني من قتل الحارثي مع رفاقه الخمسة واعتقال بقية القيادات التي لها علاقة بالعمليات الكبرى في اليمن، ورد التنظيم بعد مقتل الحارثي بأقل من شهر بضرب ناقلة النفط الفرنسية قبالة شواطىء المكلا جنوب اليمن.

ثم تمكنت السلطات الأمنية من اغتيال أبو سيف الأرحبي أحد الناشطين الذين يوفرون دعما لوجستيا لأفراد القاعدة المطاردين، ومثل مقتله نقلة نوعية في حرب الإرهاب في اليمن حيث تمت محاصرة الحي الذي يقطن فيه واقتحام منزله في العاصمة صنعاء بعد معركة لم تدم طويلا وبحضور قيادات أمنية أمريكية تعتبر هي المشاركة الأولى للقوات التي دربتها أمريكا ويترأسها نجل الرئيس اليمني أحمد علي عبد الله صالح.

وبينما كانت القاعدة تتلقى ضربات في اليمن كان تنظيم القاعدة في جزيرة العرب يحضر لعمليات كبرى في دولة الجوار السعودية، مما عزز من التعاون الأمني بين البلدين ورفع من مستوى الإتفاقيات إلى تسليم مطلوبين للبلدين.

وأخطر منهجية واجهت بها السلطات المحلية والدولية تنظيم القاعدة هي خلق شخصيات والتعامل معها على أساس أنها من القاعدة مستغلة علاقة مع التنظيم قديمة أو بعض روابطه على المستوى المحلي، ثم التسويق لهم إعلاميا كما حصل مع خالد عبد النبي الذي افتعلت الدولة معه معركة وهمية أدت إلى مقتل شبان استغل عبد النبي حماستهم للجهاد فجمعهم للسلطات كي تفتك بهم في جبال حطاط ـ أبين.

تمكنت اليمن من خلالها التأكيد للعالم أنها تشارك في القضاء على الإرهاب لتقنع الجهات الممولة لهذه الحرب من دعم مالي وتقني للجيش اليمني الجديد بزعامة نجل الرئيس.

وحاولت السلطات اليمنية تسويق شخصيات كانت ذات يوم على ارتباط بزعيم القاعدة أسامة بن لادن لبث أفكار من شأنها أن تساهم في التشويش على أفكار القاعدة على المستوى المحلي، ثم تتلقفه وسائل الإعلام العربية والعالمية للدعم في حرب الإرهاب على الجانب الفكري، وهو ذات الإسلوب الذي اتبعته الجارة السعودية من عرض اعترافات التابعين أو شخصيات رافقت بن لادن فترة الجهاد الأفغاني، وهي عمليات إعلامية استحدثت بعد أن أعلنت وزارة الدفاع الأمريكية أنها خسرت حرب الأفكار في العالم الإسلامي.

وقد لعبت قيادات عسكرية في اليمن أبرزها علي محسن الأحمر ـ أخ غير شقيق للرئيس اليمني ـ في تفكيك خلايا القاعدة التي تأسست في أفغانستان في النصف الأول من التسعينيات وبايعت أسامة بن لادن، عن طريق إغراء السلطات لهم بتحسين أوضاعهم المالية وترتيب وضعهم الوظيفي.

وتمكنت الدولة من تجنيد معظمهم لصالحها بغرض محاولة اختراق التنظيم الذي تلاشى وابتلعته حركة الحياة اليومية في دوامتها بعد قبول قياداتهم للتسوية أمثال عبد النبي والفضلي والنهدي وأبو جندل، ونشوء جيل جديد بعد عمليات الحادي عشر من ايلول (سبتمبر) تمكنت السلطات اليمنية من القبض على بعضهم بعد عودتهم من أفغانستان، وخرجت مجموعات منهم بتعهدات بعدم استهداف المصالح الأجنبية والالتزام بالطاعة والولاء للرئيس وعدم تدريب آخرين على حمل السلاح.

---

* كاتب متخصص في شؤون الإرهاب
abdulela@yahoo.com

المبادرة الهاشمية مخرج مناسب لصراع هامشي

حسن إبراهيم *

■ الضجة الضخمة التي صاحبت الرسوم الكاريكاتورية المسيئة لشخص النبي الكريم (ص) تحولت إلى كرة ثلج يمكن أن تلتهم كل مبادرة عقلانية في عالم يصر على احتقار العقل. وللصراع وجوه متعددة خاصة وأن موازين القوى والكسب الحضاري مختلة للغاية. فإن أي متفحص للمشهد الإسلامي/الأوروبي يجده مرتعاً خصباً لأصحاب نظرية صراع الحضارات، وأصحاب نظريات المؤامرة. وقد استغل أصحاب النظرة العدمية للحياة الأزمة الحالية في صراعهم ضد الغرب كمنظومة قيم ما بعد حداثية وأكدوا بانفعالاتهم للعالم أنهم يتربصون منتظرين أي ذريعة لإطلاق العنان لشاعرهم بدون مسؤولية ولا ضمير. وإن وقفوا مع أنفسهم وقفة حق فهم أساساً يتوجسون من كل شيء يأتي من الغرب. وكان ذلك موقفهم قبل حادثة الرسوم وسيستمر بعدها. لكنهم استخدموا الحادثة تأكيداً على مقولاتهم القديمة. واستخدمت بعض الأنظمة والمنظمات المأزومة في علاقاتها الدولية والإقليمية الحادثة معولاً في تصوير كل فعل آت من الغرب كجزء من مؤامرة مستديمة واستمراراً لسياسة إمبريالية يمارسها الغرب كمكون ما بعد حداثي مهيمن ومتجاوز للخصوصيات الثقافية والدينية للشعوب الملونة (العالم ثالثية) النامية.

لكن وبدون جلد للذات بدون مبرر فالخطأ مشترك. وقد وقع العالم الغربي في خطأ كبير تطور إلى مأزق لا داعي له. فلتأكيد قيم الحرية التي يقدسها الغرب حقاً وبلا مزايدة نشرت صحف نرويجية وفرنسية وإيطالية الرسوم المسيئة كموقف مساند لحرية الصحافة. ورغم أن حرية الصحافة والإعتقاد مقدسة حقاً في أوروبا إلا أن استفزاز عقائد الناس ومشاعرهم أمر تجرمه القوانين الأوروبية، وأي حس سياسي أخرق ذاك الذي سوغ لهذه الصحف ـ خاصة الفرنسية منها ـ استفزاز الأقلية الإسلامية التي لم تفق باريس من آثار الدمار الذي أحدثه أبناء المسلمين المهمشين في فرنسا.

ووقع كثير من المسلمين في خطأ معرفي عندما اعتقدوا أن حرية الصحافة في أوروبا لا تمتحن حقاً إلا إذا فتحت الصحف الأوروبية الباب واسعاً لكل من يريد تبرير الجرائم النازية. فالأمر ليس بهذه المقارنة المسطحة. فتقديس المسلمين للنبي الكريم (ص) يختلف عن الحساسية الأوروبية تجاه المحرقة اليهودية. فأوروبا تدرك أن جرائم هتلر ضد اليهود والأقليات الأخرى كانت امتداداً لعار أوروبي تاريخي مورس ضد المسلمين واليهود والغجر وكل الأقليات. وبالطبع هناك من استغل عقدة الذنب الأوروبية هذه مثل الصهاينة الذين ابتزوا بها أوروبا في ضخ الأموال إلى مشروعهم الإستعماري الذي أتى منقذاً لأوروبا من عارها التاريخي. لذا فإنه حتى لو حدثت معجزة وانقلبت الولايات المتحدة على إسرائيل فإن أوروبا تظل هي المؤسس الحقيقي لمشروع إسرائيل. وأعتقد أن أكبر خطأ نقع فيه في العالم العربي والإسلامي حينما نؤيد نكاية في إسرائيل بعض المؤرخين المهووسين من أمثال ديفيد إيرفينغ الذي سجن في النمسا لمدة ثلاثة أعوام بسبب تشكيكه في حدوث المحرقة. وأتساءل هنا عن القيمة العظيمة في دخولنا كعرب ومسلمين طرفاً في قضية المحرقة وهي شأن أوروبي خالص لا جريرة لنا فيها. ثم ما هو الجذاب في أفكار النازية الجديدة التي يتسابق بعض إعلاميينا العرب على الدفاع عنها. فتجد بعض إعلاميينا يتفاخرون بأنهم أصدقاء لنازي مثل يورك هايدار أو حتى جون ماري لوبان أو ذلك المهرج الروسي زيرونوفسكي. ألا نسهم بذلك في تبييض جرائم أوروبا وهي التي تحاول بدعمها الأعمى لإسرائيل تبييض تراث قمعي هائل منذ محاكم التفتيش ومروراً ببوغرامات قياصرة روسيا ووصولاً إلى محرقة هتلر؟

ولعل الجرح العظيم الذي أصاب العالم الإسلامي يمكن تفهمه في حالة التخلف والتضعضع التي نعاني منها. لكن أن يكون رد فعلنا على قضية الرسوم المسيئة انفعالياً بهذه الصورة فهو ما يخيب الآمال حقيقة. ورغم أن ردود العالم الإسلامي كانت تفريغاً عاطفياً وتنفيساً عن احتقان له مسببات داخلية في معظمها إلا أن البعض في بعض الحركات الإسلامية المتسيسة قررت اعتبار المظاهرات الغاضبة التي خرج كثير منها عفوياً بمثابة تحرك جماهيري إسلامي عالمي، بل ورفض بعض «علماء» المسلمين أي محاولات للتهدئة. واعتبروا الغضبة فرصة من السماء أتتهم على طبق من ذهب وأنه لا يجوز تهدئة الجماهير في الوقت الحالي. وقال بعضهم رداً على محاولات التهدئة إن الجماهير قد انفعلت فلماذا تخمدون غضبها. وربما كان العلماء يعتقدون أنه يمكن توجيه الجماهير الغاضبة لتحقيق أهداف سياسية.

لكن الغضبة باخت بعد بضعة أسابيع ولم يبق من صداها إلا مشهد بعض المنشآت المحترقة وشواهد قبور الموتى الذين تكفلت قوات مكافحة الشغب في بعض البلاد الإسلامية بالفتك بهم. وحتى سلاح مقاطعة المنتجات الدنماركية استخدم بشكل محدود وانتقائي لمصلحة بعض الدول والماركات المنافسة. لكن العقود الدنماركية الضخمة في الشرق الأوسط وإندونيسيا وماليزيا لم تتأثر، ولم يحدث تغيير استراتيجي في طريقة تعامل الدول الإسلامية مع الدنمارك.

لكن كل ذلك لا ينفي أن قضية الرسوم المسيئة تحولت إلى إسفين دق بين أوروبا والعالم الإسلامي. فحرية الإعتقاد والتعبير واستقلال القضاء ومساواة الناس أمامه قواعد تقدسها أوروبا لأنها لم تأت على طبق من ذهب. بل نالتها أوروبا بعد تضحيات وجهود علماء ومفكرين وفنانين ورجال دولة. ولا يمكن أن ننفي أن ردود الأفعال في العالم الإسلامي كانت مبالغاً فيها بل تسيء إلى شخص النبي الكريم.

وأعتقد أن هناك مخرجاً من داخل القانون الدنماركي يمكن أن يرضي الطرفين ويحوله من قضية شحن وتفريغ للعواطف الإسلامية إلى نزاع قانوني من أناس امتهنت كرامتهم ضد صحيفة أفسدت وطغت وتجبرت رغم صغر حجمها. وتخيلوا معي السيناريو التالي: يتقدم احفاد النبي (ص) بصفتهم الإعتبارية كمسلمين وأصحاب حق أساسي حيث أن الصحيفة سبت جدهم بشكوى إلى المحاكم الدنماركية ضد الصحيفة «يلاندز بوستن» في صورة رئيس تحريرها وتكون الشكوى هي الإساءة وتشويه السمعة، وتهم أخرى تبدأ بالتحريض على الكراهية الدينية والتمييز العنصري وتنتهي بالتسبب في القتل. والقانون الدنماركي يمكن أن يقبل دعوى كهذه ـ حسب رأي قانونيين دنماركيين ـ.

ولإكساب قضية كهذه أهميتها لا بد من أن يتقدم بالدعوى رجل من الأشراف يتفق عليه الأشراف في جميع أرجاء العالم الإسلامي. وبعيداً عن المزايدة السياسية فإن الهاشميين من كل جنسية في العالم الإسلامي مقبولون لحد كبير من معظم المسلمين. ولا أتحدث عن البعد السياسي للاسرة الهاشمية ولا نقاط الإختلاف أو الإتفاق بينهم وبين أصحاب المشاريع الأخرى التي أثرت سلباً أو إيجاباً في تاريخنا العربي والإسلامي. وأذكر أن الأمير الحسن بن طلال ولي العهد الأردني السابق عميد أشراف آل البيت في الأردن كان قد صرح لقناة الجزيرة الفضائية في شباط (فبراير) من هذا العام بفكرة مماثلة مضمونها كحل أمثل لهذه القضية الشائكة الملتبسة. والرجل له مؤهلات أخرى غير نسبه إلى الرسول الكريم فهو مؤسس معهد الفكر العربي ومثقف مقبول للغاية في الدوائر الغربية. ويمكنه إن تمكن من الحصول على تفويض من الأشراف في جميع بلاد العالم الإسلامي أن يتقدم بهذه القضية بصورة حضارية فيها من نبل المهمة وأدب الخطاب ما سيمنح المسلمين صيتاً حسناً بدلاً من مشاهد الحرق والوعيد والسباب التي امتلأت بها التلفزيونات وشغلت المسلمين عن قضاياهم الأساسية بصورة مخجلة.

الجانب المرعب حقيقة في الشحن والتفريغ العاطفيين ضد الدنمارك هو بعض النفاق الذي صاحب هذه الحملة. فلماذا لم تحدث نفس الحملة ضد الولايات المتحدة الأمريكية عندما رمى حراس غوانتانامو وأبو غريب المصحف في المرحاض؟ أو عندما تفوه ابن القس بيلي غراهام بسبابه المقذع لشخص النبي الكريم (ص) وللإسلام والمسلمين؟ لماذا لم تحرق السفارات الأمريكية عندما أحرقت القنابل الأمريكية مئات آلاف العرب والمسلمين في العراق؟ ولماذا لم نغضب هذه الغضبة الهوجاء عندما سمى الرئيس الأمريكي أريل شارون «بطلاً للسلام» في نفس الأيام التي كانت جثث الفلسطينيين تتحلل تحت ركام مخيمات نابلس ورام الله؟ وفي استطراد لا بد منه أليس التجويع والإفقار والديكتاتورية والظلم أشد إساءة للنبي وتعاليمه من رسومات غبية لكاتب جاهل؟!! فدعونا نتقدم بهذه الفكرة ونحول القضية الدنماركية إلى صراع قانوني يمكن الفوز به، وهو ما سيتحول إلى سنة حميدة تحمي سيرة نبينا ومكانة المسلمين في أوروبا والعالم.

---

* كاتب من السودان يقيم في الدوحة

فرنسا مثلها مثل سفينة التيتانيك فهي تغرق رويداً رويداً

د. محمد عجلاني*

■ تجتاز فرنسا ربما ازمتها الحادة والمستمرة منذ وقت طويل، فهي دائمة التخبط بدون ان تجد الحلول المناسبة لازماتها، وان وجدتها فهي حلول ترقيعية لا تفيد ولا تغني، ولذلك نجدها تعالج ازمة فتخلق لها ازمة اخرى، ولم يعد لقبطان السفينة اي استراتيجية واضحة، سوى ترقيع سفينته ولكن هذا لن يمنعها من الغرق التام اذا بقيت الامور على هذه الحالة، ويمكن تشخيص ازمة فرنسا على عدة جهات واهمها:

1 ـ ازمة النخبة الحاكمة: اذا كانت الامور سيئة في بلدنا، فانظر الى قبطان السفينة كيف يقود سفينته، ففرنسا اليوم وبالاخص نخبها فقدت الرجل الذي يحمل مشروعا واضحا مؤسساتيا وسياسيا بل اصبحت النخبة عبارة عن هرطقات سياسية فالاشتراكيون منقسمون فيما بينهم، واليمين لم يحدد اسم مرشحه بعد للانتخابات الرئاسية القادمة.

واليمين المتطرف يزداد قوة، وعلى النقيض الاخر، نجد يسارا متطرفا، ورحم الله من قال ذات مرة ان فرنسا تحكم من الوسط بالاضافة الى ان هناك قطيعة بين نخبة فرنسا الحاكمة والشعب الفرنسي الذي يزداد فقرا وفقرا بينما يزداد البعض ثراء من دون ان يستحقوا هذا الثراء.

2 ـ نظام الجمهورية الخامسة: اصبح بحاجة لتعديل، وخاصة في ظل المتغيرات والمتطورات المتسارعة، فالبرلمان الفرنسي لم يعد له اي دور فعال في التأثير على القرارات الكبرى، والمقاطعات الفرنسية تطالب بادارة ذاتية واسعة، والدستور الفرنسي بحاجة الى تعديل، فهو ليس من المقدسات بل كل دساتير العالم تراجع وفق التطورات والتسارعات التي تحصل عبر الحقبات المختلفة.

3ـ الازمة المالية: الدين العام اصبح كبيرا جدا في فرنسا حيث بلغ مؤخرا اكثر من 1800 مليار يورو وهو رقم مخيف جدا، وهذا سببه الانفاق والاسراف بشكل غير معقول وخاصة على الادارات والبعثات الفرنسية في الخارج.

بالاضافة الى النظام الاجتماعي والصحي الذي بقي يدار بشكل سيىء وفوضوي بدون اي تنظيم واستراتيجية واضحة حيث ان الموازنة اصبحت تعاني من عجز مستمر، واصبحت هناك ضرائب مالية تضاف كل سنة لسد هذا العجز ولكن بدون حل جذري.

الترقيع هو المبدأ، والحلول الجذرية هي الاستثناء.

4 ـ ازمة البطالة المستشرية: رغم ان الحكومة الفرنسية تلعب على الارقام الا ان مستوى البطالة اعلى مما تظهره الاحصائيات الرسمية، فهو يتجاوز العشرة بالمئة ورغم ان الحكومة قد فعلت كل شيء من تخفيض لساعات العمل الى تقديم مساعدات لمدراء الشركات من اجل حثهم على التوظيف، الا ان كل هذه الحلول غير مجدية، لان الدورة الاقتصادية الفرنسية معطلة والنمو الاقتصادي ضعيف وكذلك الاستهلاك بدون ان ننسى القوة الشرائية للفرد الفرنسي التي انخفضت عن معدلها العام منذ دخول اليورو اي العملة الاوروبية الموحدة.

بالاضافة الى كل هذا وذاك، ففرنسا اصبحت تتقشف بالنسبة للموازنة المالية المخصصة للتأهيل وللتعليم مما انعكس سلبا على مستوى التعليم والتأهيل والنظام التعليمي الذي اصبح يخرج اناسا لا يلبون متطلبات سوق العمل.

5 ـ النظام الضريبي: الكل يشكو في فرنسا من النظام الضريبي والضرائب المفروضة على الدخول المالية، لذلك نجد ان معظم ارباب الشركات الفرنسية يضعون اموالهم في بنوك خارج فرنسا كسويسرا ولوكسمبورغ، وكذلك الامر بالنسبة لشركاتهم حيث يجعلون مركز هذه الشركات في بلاد اجنبية عربية او اسيوية حتى يتهربوا من دفع الضرائب المالية، ففي فرنسا يجب ان تدفع 45% من قيمة ارباحك الى صندوق الضرائب، لذلك اصبح التهرب الضريبي والاعلان الخاطىء عن الارباح هو القاعدة يمارس بشكل كامل لدى الفرنسيين.

6 ـ فرنسا والعولمة: لم تكن فرنسا عبر قوانينها ومؤسساتها وعقليتها وتركيبة اقتصادها مهيأة لان تواجه العولمة المتمثلة بهذه الشركات الكبرى العابرة للقارات التي تمتلك اسواق العالم بسبب مرونة قوانينها وسرعة استجابتها للشروط الموضوعية والذاتية لهذه الاسواق، بل على العكس من ذلك وخاصة الشركات الفرنسية العامة فهي ذات بنية ثقيلة بيروقراطية من الصعب عليها التأقلم مع الاسواق المتغيرة ولذلك نجدها عندما تدخل في منافسة مع شركات امريكية او بريطانية او حتى المانية تخسر هذه الاسواق بسهولة، وكما قال لي ذات مرة رجل اعمال خليجي باننا في الخليج نفضل المواد المصنعة الامريكية لان رجال الاعمال في امريكا يفصلون لنا منتجات تتناسب وطبيعة اسواقنا وكذلك ثقافتنا بينما يرفض الفرنسيون القيام بمثل ذلك.

ولذلك، وهذا طبيعي ومنطقي، ان تتراجع نسبة الصادرات الفرنسية الى العالم، وتعاني بعض الشركات الفرنسية من كساد اقتصادي حقيقي.

الازمة الاجتماعية: ضعف القوة الشرائية للفرد الفرنسي، وضعف نسبة النمو الاقتصادي حيث بلغت اقل من 2% هذا العام، وضعف الاستهلاك، وارتفاع معدل الدين العام، كل هذه الامور انعكست بشكل سلبي على الحياة الاقتصادية للفرنسيين، فجيوب الفقر تزداد اتساعا، وهناك اكثر من ثلاثة ملايين فرنسي ممنوعين من استخدام شيكات مصرفية بسبب وضعهم الاقتصادي السيىء، كذلك ازداد عدد المتسولين والذين لا يملكون مأوى بسبب الارتفاع الجنوني لايجار العقارات والمنازل وخاصة في المدن الكبرى، لدرجة ان ايجار او شراء شقة اصبح ضربا من ضروب الخيال، بالاضافة الى ان الدولة توقفت عن بناء سكن اجتماعي بأسعار معقولة واصبح من الصعب في بلد يمثل المرتبة الرابعة في اقتصاديات العالم ان تجد عملا ومسكنا مناسبا ولذلك تجد ان عائلات فرنسية كاملة مدانة ولا تنتهي من تسديد قرض مالي حتى توقع على قرض اخر.

ازمة ضواحي المدن الكبرى: هناك ازمة اقتصادية واجتماعية حقيقية داخل هذه الضواحي التي تقطنها اغلبية من المهاجرين العرب والمسلمين، فالدولة الفرنسية همشتهم عندما اختارت لهم هذه المناطق وعزلتهم عن المجتمع الفرنسي، لذلك تجدهم يعيشون جسديا في فرنسا ولكن بقيت عاداتهم وثقافتهم وتفكيرهم وكأنهم يعيشون في احد احياء الجزائر كبلكور والقصبة.

بالاضافة الى كل هذا وذاك، فهم محرومون من سوق العمل ونسبة البطالة في صفوفهم مرتفعة جدا، واستهلاكهم الاقتصادي صفر، ومشاركتهم في الحياة السياسية والاجتماعية والادارية الفرنسية صفر، وهم ابناء هذا الجيل الاجنبي المشرد والتائه لان لا الحكومة الفرنسية ساعدت على دمجهم داخل مج